

حملتا أونطونيو بارثيللو على الجزائر

في أواخر القرن الثامن عشر

من خلال مخطوط «تاریخ مجیء الصبینیو».

*** د. عبد القادر فکایر

مقدمة: يندرج هذا العمل في إطار اهتمامي الخاص بالتراث الجزائري المرتبط بالصراع الأسباني الجزائري الذي استمر لمدة ثلاثة قرون (16-18)، إن هذا العمل التراویي يؤرخ لأحد فصول العدوان الأسباني الذي تعرضت له مدينة الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر. لقد استمر الأسبان في سعيهم الحشيشي في احتلال مدينة الجزائر رغم المحاولات السابقة التي وقعت في القرن السادس عشر. وبعد حوالي قرنين من الحملات السابقة، حاول شارل الثالث، تحقيق ما فشل فيه أسلافه.

في أواخر القرن الثامن عشر شنوا على مدينة الجزائر ثلاث حملات بصورة منفردة أو عن طريق التحالف مع دول أخرى، لكن الحظ في كل مرة كان في غير صالحهم فكانوا يرجعون منهزمين. وتمثل هذه الحملات في حملة أورييلي سنة 1775^(١)، وحملة بارثيللو في سنتي 1783، 1784 على التوالي. إن المخطوط الذي سنقوم بعرضه قد تحدث عن الحملتين الأخيرتين فقط ولم يتعرض للحملة الأولى، غير أنه أشار إليها ضمنياً، عندما قال في مستهل حديثه عن حملة بارثيللو الأولى (1783): "هذا تاریخ مجیء الصبینیو في المرة الثانية إلى الجزائر".

صاحب المخطوط: إن صاحب هذا العمل معاصر لهذه الأحداث، لما ورد فيه "سقطت بونية في دار صاحب هذا التاريخ ولم تفرق" الورقة 2(ب)، وذلك خلال الحملة الأولى (1783)، كما أنه وفي إطار ذكر الكاتب لعدد السفن الأسبانية التي شاركت في الحملة الثانية (1784)، ذكر "قد عدلت منهم اثنين وأربعين لكنهم ينقصون ويزيدون". الورقة 4(ب). ولم يرد اسمه في هذا الكتاب غير أنه مسجل في أعلى الورقة الأولى العبارة التالية "في نوبة الفقير الحقير عبد الله سنة 1259هـ"، وهنا يمكن أن نقول أن اسم هذا الشخص يكون دون شك هو الناسخ، الذي قام بإعادة نسخه سنة 1259هـ، أي ما يوافق سنة

*-- أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر - قسم العلوم الإنسانية - المركز الجامعي بخميس مليانة.

ـ 1432 م. وفي آخر المخطوط، ختم الناشر المخطوط بعبارة "أودع كاتب المخطوط شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ثم ذكر بعض العملات التي تعرضت لها مدينة الجزائر؛ فذكر تاريخ ديلمرك 1184 أي الحملة الداغاركية على مدينة الجزائر بقيادة كاس(Caas)، تاريخ حرب الإنكليز على الجزائر سنة 1231 (وهي حملة إكسنوث سنة 1816، تاريخ الفرancisco لما أخذ الجزائر 1242 أي سنة 1830).

وصف المخطوط: يوجد هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة تحت رقم 2285، وهو من الحجم الصغير، يحتوي على ست ورقات، سجلت في أعلى الورقة الأولى العبارة التالية: "في نوبة الفقر الخمير عبد الله سنة 1259⁽²⁾".

خطه مغربي مكتوب بالداد الأسود واضح. الصفحتين 3 (ب) و 4 (أ) غير مكتوبتين. يحتوي على بعض المهامش التي هي عبارات سقطت سهوا من الناشر، فأدرك تسعيلها على المامش، توجد في ثلاثة حالات.

تحتوي الصفحة (أ) من الورقة 2، والصفحة (ب) من الورقة 2، والصفحة (أ) من الورقة 4 على 21 سطرا.

أما الصفحة (أ) من الورقة 5 فتحتوي على 19 سطرا.

الصفحة (ب) من الورقة 1 تحوي على 17 سطرا.

الصفحة (أ) من الورقة 3 تحوي على 13 سطرا.

الصفحة (ب) من الورقة 5 تحوي على 25 سطرا.

يتناول المخطوط الحملتين الأسبانيتين على مدينة الجزائر، سنتي 1783 و 1784، بقيادة القائد أونطونيو بارثيلو(Antonio Barcelo). ولم يرد في المخطوط اسم قائد الحملة.

أما لغته فبساطة وتحتوي كثيراً من عبارات اللغة العامية التي لا تتطابق مع قواعد اللغة العربية الصحيحة. مثل عبارة (بونة) وعبارة (تفرق) وغيرها.

الحملة الأولى 1783: جاء في البداية ما نصه بعد البسمة والتصلية "هذا تاريخ مجيء الصنبول في المرة الثانية إلى الجزائر أيدها الله"⁽³⁾، ثم أخذ صاحب الكتاب في سرد وقائع الهجوم الذي تعرضت له مدينة الجزائر سنة 1783، فذكر أنه في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شعبان من سنة 1197هــ جاء من

البحر أسطول يتالف من نيف وسبعين مركب، يتشكل من عدة أنواع من السفن. يحتوى بعضها على مدافع وفي البعض الآخر قابيل⁽⁴⁾.

وبعد ثلاثة أيام بدأ القتال يوم الجمعة الذي يوافق اليوم الثاني من رمضان بعد صلاة الجمعة بساعة ونصف حيث ألقى على مدينة الجزائر ومرساها نحو خمسة قذيفة، غير أن أغلبها سقط في البحر، ولم تصيب مدينة الجزائر منها سوى عشرة قابيل فقط، أصابت بعض المباني ومنها برج الفتار، كما أسفرت عن مقتل شخص واحد فقط وجراح نحو العشرة، ثم توقف القصف بعد ساعتين ونصف من بدئه.

تواصل القتال يوم السبت زوالاً، وكان أشد من اليوم السابق، إذ رمى الأسبان على المدينة أكثر من خمسة قذيفة (بونبة) لطول القتال، الذي استمر نحو خمس ساعات وربع. وقع الكثير منها على المدينة، وأدت إلى تدمير بعض المنازل، وتسببت في خرق سقف الجامع الكبير، وبعضها سقط على المرسى، وقتل خلال هذا اليوم ثانية أشخاص.

قال الكاتب أنه في يوم واحد لم يقع بيننا وبينهم القتال وهو يوم الأحد، ثم استأنف الأسبان عملاً به بالقصف في يوم الاثنين، الذي شددوا فيه من القصف أكثر من الأيام الماضية، لكنه لم يستغرق سوى ساعة ونصف فقط بسبب رد فعل المسلمين تجاه أعدائهم برميهم، وأصابت قذائفهم العديد من مباني العاصمة ذكر منها انهدام بعض المنازل، وبعضها أصابت الجامع الكبير وجامع السيدة⁽⁵⁾ وسيدي والي دادا. وكذلك أصابت المرسى وبرج الفتار. ومات من المسلمين في هذا اليوم رجالان أو ثلاثة كما ذكر الكاتب، وجراح نحو عشرة أشخاص.

لم يقع القتال يوم الثلاثاء، وفي يوم الأربعاء باشر الأسبان قصفهم منذ الصباح الذي كان أعنف من الأيام السابقة، وقد أصابت قابيلهم الأبراج والمرسى والسفن الرئيسية فيه، وحسب الكاتب لم تسقط على المدينة إلا ثلاثة قابيل أو أربعة، وقتل نحو اثنين عشر شخصاً، وجراح نحو العشرين. وعلى غير العادة عاود الأسبان قصفهم بعد توقفه لمدة ساعتين ونصف، وذلك قبل الغروب بساعة. وهذا ما فاجأ الناس حيث كانوا متفرقين في المدينة على أنه وقت توقف القتال؛ فتمكنت سفنهم من الاقتراب من القصبة، لأن أهل الأبراج لم يرموا عليهم قذائفهم؛ ففرقت فرقاطة، وفي هذا الوقت سقطت قذيفة في دار صاحب هذا المؤلف، لكنها لم تتفجر وكان رجل وامرأة كبيرين فلم يلحق بهما بأس بفضل الله، وقيل حلول المغرب بذلك أنه الأسبان هجومهم.

وفي صباح يوم الخميس عاود الأسبان هجومهم لكنهم لم يقدروا على الاقتراب من الأبراج لكثرتها نار المدفع التي كان الجزائريون يرمونها بها، بالإضافة إلى قيام الداي بتدعيم الدفاع بثلاث حاميات. وبعد ساعة وربع من القتال أضطر الأسبان إلى التراجع. لم يمت في هذا اليوم سوى شخص واحد، وجرح أربعة آخرون. وفي المساء كرر الأسبان هجومهم الذي دام نحو ساعة، سقطت إحدى قذائفهم فأحدثت حريقاً في خزينة الدخائر، وتسببت في استشهاد ستة أشخاص وجراح ثلاثة آخرين.

وفي يوم الجمعة خرجت إليهم السفن القتالية الجزائرية، واحتسبوا معهم بعيداً عن المدينة، حيث لم تصل إليها قذائفهم، غير أنه في المساء تجدد القتال وأصابت قذائفهم المرسى والأبراج وتسببت في قتل رجل أو ثلاثة، وجرح ما بين أربعة وأشخاص أو خمسة.

وفي يوم السبت قيل الزوال أنه الأسبان عدواهم، وعادوا إلى بلادهم دون أن يتحققوا مبتغاهم. وفي آخر سرد لأحداث هذا الهجوم لخص الكاتب نتائج هذه المعركة؛ فذكر أن ذلك كان يوم السبت العاشر من رمضان من السنة المذكورة (1197). وأحصى أنها كانت في تسع جولات، وعشرة إذا حسبنا ما وقع بين الفلايك وبينهم في الخميس الأول. كما ذكر أن مجموع الموتى من المسلمين كان على التقرير 46 وربما زاد بقليل أو نقص بقليل حسب تعبيره، ومجموع عدد الجرحى بلغ 52، وربما زاد أو نقص. وأنه الكاتب رواية هذه الملحمة بعبارة الحمد لله رب العالمين.

الحملة الثانية 1784: استهل الكاتب حديثه عن هذه الحملة دائماً بذكر البسملة التصلية، ثم كرر تسمية عمله كما في الحملة الأولى (هذا تاريخ مجيء الصبيوں). بعدها ذكر أنه في يوم الجمعة الواحد والعشرين من شهر شعبان أيضاً سنة 1198 الموافق لـ 28 جوان جاء الأسبان إلى مدينة الجزائر في أسطول، مجموع مراكبه على ما قيل مائة ونinet وثلاثين. كان فيها ثمانين من الانجور⁽⁶⁾ والبقية ما بين سفن كبيرة وصغرى. وأضاف الكاتب قائلاً: "إني قد عدلت منهم اثنين وأربعين".

ثم انتقل صاحب هذا العمل إلى الإجراءات التي اتخذها داي الجزائر محمد عثمان لمواجهة العداون، حيث صنع في هذه السنة خمسين مركبة مسماة الانجور، وضمّ إليها السفن الكبرى، وأصبح مجموع السفن ستين، اثنتين وأربعين منها مجهزة بالمدافع، والباقي بالمهارز⁽⁷⁾. ولم يخرج الجزائريون لمواجهةتهم يوم الجمعة بسبب هبوب الرياح. وتأجل ذلك إلى غاية يوم الاثنين حيث خرج إليهم الأسطول الجزائري في عمق البحر، وبعد ساعتين أو ثلاثة من وصولهم إليه، بادر الجزائريون بالقصف ورد عليهم الأسبان بالمثل،

وذكر الكاتب أنه وقع بينهم قتال كبير، أدى إلى غرق عدد من السفن: سبعة من سفن الأعداء، وثلاثة سفن جزائرية، وبلغ عدد القتلى من الجزائريين ستة وعشرين، وعدد المجرحى عشرين، وبهذه الصورة القاتالية الجديدة التي اتبعها الجزائريون لم يتمكن الأسبان من الاقتراب من المدينة، هنا وقد استمر القتال لمدة ثلاثة ساعات في هذا اليوم.

توقف القتال لمدة يومين ليستأنف يوم الخميس على إثر عزم الأسبان التقدم نحو المدينة، فخرج إليهم الجزائريون، وقاتلوا في وسط البحر لمدة أربع ساعات، وكما حدث في يوم الإثنين يقول الكاتب لم يصل إلى المدينة شيء من القذائف. وكانت نتيجة هذه المعركة تحطيم سفينتين للمسلمين من نوع الانجور، ومات منهم نحو الستة، وجرح نحو العشرين.

وفي يوم الجمعة اعترض المسلمون من جديد طريق السفن الأسبانية وهي تحاول الاقتراب من مدينة الجزائر، واشتبكوا معها في معركة بحرية استغرقت ثلاثة ساعات، كانت نتيجتها فقدان ثلاثة سفن أو سفينتين للجزائريين من نوع الانجور، ومات منهم أربعة أو خمسة، أما عدد المجرحى فيبلغ نحو الشمانية، وبعد العصر من هذا اليوم استأنف القتال عندما عاود الأسبان هجومهم الذي كان مفاجئاً للجزائريين، مما دفع بعض المقاتلين بالهرب إلى المروب، وذكر الكاتب سبباً آخر لسلوكهم هذا الأمر، وهو أن الداي لم يزد لهم الراتب، وهناك من المقاتلين من رفض الخروج بسبب نوعية المدافع التي كانوا يستعملونها في القتال، وهي مصنوعة من الحديد، التي كانت سبباً في هلاك الجزائريين إثر انفجارها، حيث كانت تسبب في تحطيم السفينة التي كانوا على متها.

وذكر الكاتب أن النصارى لم يقتلوا من المسلمين في هذا القتال كله إلا نحو السبعة، ولما رأى الداي خطورة الموقف بدل بعض مدافعيهم الحديدية وأعطياهم بدلاً من نحاس، كما رفع في الأجر، وسمحت هذه الإجراءات الجزائرية للأسبان أن يقتربوا من المدينة، ورغم ذلك سارع الجزائريون إلى الخروج لمواجهتهم وتمكنوا من إجبارهم على التراجع، وبذلك تم إبطال خططهم؛ فلم يتمكنوا من النيل من المدينة، واستغرقت المعركة مدة ساعتين، مات خلالها شخص واحد من المسلمين وجرح نحو الستة.

تجدد القتال يوم السبت لمدة ثلاثة ساعات ونصف، مات فيها من المسلمين واحد أو اثنين، وجرح علد يسير منهم.

وفي يوم الأحد ذكر الكاتب أن أمير الجزائر قلل العطاء للناس فراغوا عن القتال، وراحوا يشتغلون بأمورهم الخاصة؛ فاستغل العدو هذا الظرف وتقدم بسفنه إلى المدينة، ولم تجد حالة الاستفار التي قام بها المسلمين الذين خرجوا لمواجهةه، إذ تكنت سفن الغزاة من الإقتراب من مدينة الجزائر، ووصلت قذائفهم بعض المباني - كدار الانكشارية وبرج الفنار - التي قتل فيها إثنين أحد هما ابن القائد الذي توفي بعد ثلاثة أيام من نهاية المعركة، وجرح نحو أربعة، ورأس عمار الذي جرح فيه نحو العشرة، وسقطت قذائف أخرى في المرسى، وبعد أن استمر القتال لمدة ساعة ونصف تمكن المسلمون من إجبار المعتدين على الرجوع إلى داخل البحر.

عاود الأسبان هجومهم على مدينة الجزائر صبيحة يوم الإثنين، فردهم المسلمون على أعقابهم، وطاردوهم حتى أجبروهم على الهروب، وذلك بعد ساعة من القتال. ولم تصب قذائفهم لا المرسى ولا المدينة، وكان الأمير كما قال الكاتب يحمل لهم عطاهم في هذا اليوم، حيث أعطى ديناراً لكل واحد منهم، وقد أثني الكاتب على المقاتلين الجزائريين إذ قال: "وقد أحسنوا في هذا اليوم أحسن الله إليهم، وقوائم على أعدائهم"، كما ذكر أنه لم يصب من المسلمين في هذا اليوم أحد.

توقف القتال يوم الثلاثاء ليستأنف يوم الأربعاء، حيث دامت المواجهة لمدة ساعتين، ولم تصل قذائف الأسبان إلى المدينة أو المرسى، غير أنها تكنت من إصابة ثانية أشخاص قتلوا، وتسببت في جرح اثنين عشر رجلاً آخر، وبعد يومين من هذه المعركة اضطر الأسبان إلى الانسحاب نهائياً من قبلة مدينة الجزائر، والعودة إلى بلادهم دون تحقيق الهدف الذي جاءوا من أجله وهو احتلال مدينة الجزائر، وكان ذلك يوم الجمعة.

وفي آخر روايته لهذه الحملة ذكر الكاتب أن مجموع الجرحى من المسلمين بلغ مائة وأربعة وثلاثين شخصاً، ولم يذكر عدد الموقت، وبعد ما أحصينا عدد القتلى التي ذكرها الكاتب خلال كل يوم من أيام الغارات الأسبانية، وجدنا أن عددهم بلغ نحو الخمسين.

نتائج هذا العدوان: لقد نتج عن هذا الانكشار الأسباني البحث عن صلح مع الجزائر يحفظ مصالحهم، لكن الداي محمد عثمان باشا اشترط عليهم شروطاً عديدة منها الانسحاب من وهران والمرسى الكبير، ثم دخل البلدان في مفاوضات بين عامي 1785 و1786م، حيث وصل إلى الجزائر عدد من المفاوضين، نذكر منهم الكوندي ديسي والأمير مازاريدو، وساعدتهم في مهتمتهم القنصل الفرنسي دي

كيريسي، واستمرت المفاوضات عاماً كاملاً قبل أن يتوصل الطرفان إلى اتفاق هنائي، وتبودلت عدة رسائل بين البلدين، وفي 14 جوان من سنة 1786 أمضى الداي محمد عثمان باشا على بنود الصلح المتألفة من 25 مادة أو بند، وبعد شهرين ونصف أمضها الوزير الأول الأسباني الكوندي فلوريدا بلاتكا أي في 26 أوت من نفس السنة، وأهم ما جاء في هذه الاتفاقية:

- 1- أن يكون السلام الدائم بين البلدين.
- 2- لا يعرض البحارة الجزائريون إلى السفن الأسبانية في البحر، ونفس الأمر ينطبق على البحارة الأسبان.
- 3- يسمح للمرأكب الجزائرية بالرسو في جميع الموانئ الأسبانية، وتعامل المرأةكيب الأسبانية نفس المعاملة في الموانئ الجزائرية.
- 4- يستطيع التجار الأسبان أن يترلوا بضائعهم، ويتجروا بحرية بالموانئ والسواحل الجزائرية، ويتمتع التجار الجزائريون بنفس الحقوق في الموانئ الأسبانية.
- 4- يقيم قصل لأسبانيا في الجزائر، وللنادي أن يعين متى شاء شخصاً مناسباً ليستقر بأحد مراحيض إسبانيا بصفته مثلاً للدولة الجزائرية.
- 5- تبقى مدينة وهران وحصونها وقاعدة المرسى الكبير على ما كانت عليه من قبل⁽⁸⁾.

الإحالات:

- (1) كانت وهران تعرض من حين لآخر للهجوم من طرف الجزائريين، مما أنهك الجيش الأسباني بها. فرأت السلطة في مدريد أنه لا مناص لها من أحد الحلتين، إما الانسحاب من وهران أو إخضاع العاصمة. فاختارت الحل الثاني، فجهزت حملة كبيرة تتألف من 22600 مقاتل، على متن أسطول تعداده 400 سفينة⁽²⁾ حربية ونقل، وعتاد حربي ومؤن وذخيرة. وقد حظي الملك الأسباني بتأييد الكنيسة وبعض الدول الأوروبية على رأسها المدن الإيطالية. اختار الملك دون بيدرو كاستيخون قائداً للأسطول بينما تولى قيادة الجيش الأميرال الأيرلندي الأصل أورييلي. انطلقت الحملة من قرطاجنة في 23 جوان، ووصلت إلى عاصمة الجزائر في أول جويلية. لقد انهش الأسبان عندما شاهدوا شواطئ العاصمة محصنة بالمدافع، وهذا ما دفعهم إلى اختيار خطة الإنزال البري ثم الزحف على العاصمة. بدأ الإنزال في مصب وادي الحراش في 8 جويلية، الذي كان يطأينا مما سهل على سلطات الجزائر استقدام التعزيزات العسكرية من البيالك، حيث استجاب البيالك الثالثة للقدوم إلى الجزائر تنفيذاً لدعوة الداي. هنا ما أرغم الأسبان على الانسحاب وبطريقة غير نظامية، لما أصابهم من ارباك أرغمهم على ترك عتادهم والتخلّي عن أسلحتهم، والالتحاق بسفهوم الراسية في الساحل، تاركين نحو 100 مدفع، وألات حربية أخرى، وحوالي 3000 قبيل، و 466 جريح. وذلك بعد معركة دامت عشرة أيام.
- (2) يدور أنها سنة 1259هـ، السنة التي نسخ فيها هذا المخطوط.
- (3) الحملة الأولى وقعت سنة 1775 بقيادة أورييلي.
- (4) ورد اسمها في المخطوط بعبارة بومبة.
- (5) يرجع تاريخ بنائه الأول إلى سنة 1564، وقد تسمى على اسم التي بنته، وهي بنت ملك بجاية مولاي الناصري جده محمد باشا، كان من أهل مساجد العاصمة وأكثراها زخرفة وبهاء، هدمه الفرنسيون فهانيا إثر احتلالهم لمدينة الجزائر.
- (6) وهي نوع من السفن الحربية تحمل المدافع وتتجه بسرعة للاقتاء العدو على بعد.
- (7) أو المهارس كما وردت في مذكرات أحد الشريف الزهار، وهي مدافع الماون.
- (8) أنظر النص الكامل للاتفاقية في: د. يحيى بوغزير، المراسلات الجزائرية الأسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد 1798-1780)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993 الجزائر، صص. 38-44.